آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصــدر عن قسم الدراســات والمجلة

بمركــز جمعــة الماجــد للثقــافة والتــراث

دبــي ـ ص.ب. ٥٥١٥٦

هاتـــف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+

فاكـــس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+

دولــة الإمــارات العربيــة المتحــدة

السنة الثالثة عشرة : العدد الحادي والخمسون ـ رمضان ١٤٢٦ هـ ـ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٥ م

رقــم التسجيل الدولي للمجلــة

ردمد ٢٠٨١ ـ ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليـــل

أولريخ الدولي للدوريات

تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

هيـــئة التحـــرير

مديــر التحرير

د. عز الدين بن زغيبة

سكرتير التحرير

د. يونس قدوري الكبيسي

هيئة التحرير

أ.د. حاتم صالح الضامن

د. محمــد أحمد القرشــي

أ. عبد القادر أحمد عبد القادر

الاشتراك السنوي	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهـــم	١٥٠ درهمــــاً
الأفـــراد	٧٠ درهمـــاً	١٠٠ درهمـــاً
الطـــلاب	٤٠ درهمـــاً	٧٥ درهمـــاً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــرس

الافتتاحية

■ مكتبة خودابخش الشرقية العامة درة بيهار المعدمة

مدير التحرير ٤

المقالات

■ النصب بالمدح والذم في القرآن الكريم

د. حسن أسعد محمد ٦

■ صوتيات القرآن الكريم

أ. خالد مسعود خليل العيساوي ١٦

■ القرائن الدلالية في الحديث النبوي الشريف

د. هناء محمود شهاب ٣٠

■ همزية البوصيري تلك الرائعة التي شغل الناس عنها بالبردة

أ. د. محمد سعيد رمضان البوطي ٥٠

■ نقد الشعر بين النحويين والشعراء

د. وليد قصّاب ٦٠

■ أبو بكر بن أبي شيبة والتفسير الذي نُسبَ إليه (بحث علمي في توثيق نسبة التفسير إليه)

أ.د. سليمان ملا إبراهيم أوغلو ٧١

■ الشيخ الطيب العقبي مصلحًا

د. كمال عجالي ٨٠

■ دراسة إجازة البقاعي للنعيمي من خلال مخطوط (الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان) على ضوء «علم المخطوطات»

أ. عبد الواحد جهداني ٩٠

■ تراثنا العلمي... والسبيل إلى إحيائه

د. مصطفى يعقوب عبد النبي ١٠١

■ إجراءا ت الترميم المعماري وأساليبه في الجزائر

الأستاذة/ نجاة أحمد عروة ١١٣

المقالات العلمية

■ التاريخ الطبيعي للافقاريات

أ.د. محمد حسن الحمود ١٢٨

■ العلاج الطبيعي في التراث العربي الإسلامي

أ. د. محمود الحاج قاسم محمد ١٤٢

■ الملامح الفنيّة والتقنيّة للمخطوط الإسلامي المزوّق في العصر العباسي

أ. د. صلاح حسين العبيدي ١٥٠

تعريف المخطوطات

■ «السناء الباهر بتكميل النور السافر» للشلي باعلوي اليمني المكي - مخطوطة المتحف البريطاني

د. محمد سعيد صمدي ١٦٣

تحقيق المخطوطات

■ كتاب (تحسين الطرق والوجوه في قوله ﷺ: اطلبوا الخير عند حسان الوجوه)

دراسة وتحقيق: الدكتور يونس قدوري ١٧١

صوتيات القرآن الكريم

أ. خالد مسعود خليل العيساوي
مدريد - إسبانيا

تدرس هذه الورقات شيئًا مما يمكن أن يسمى (صوتيات القرآن الكريم)، وهو موضوع، في تقديري، مهم جدًا، وربما لم يلق حتى الآن الدراسة الكافية والاهتمام الأمثل من دارسي أصوات العربية؛ فمعظم من تعرض للدرس الصوتي العربي انطلق مما جاء به المحدثون من علماء اللغة، مغفلاً ما تركه لنا علماء العربية الأوائل عامة، وعلماء التجويد منهم خاصة، من ثروة في ميدان الدراسات الصوتية صالحًا تُشاد عليه، من شأنها أن تكون أساسًا لدراساتنا الصوتية الحديثة.

ونحن هنا لسنا ندعو إلى نبذ كل ما هو حديث، أو طرح ما ورد إلينا من الغرب خاصة، إنما نحث الهمم على عدم تجاهل موروثنا الحضاري وتجاوزه إلى غيره. مع أنّ فيه ما يمكن البناء عليه، بل إنّ فيه ما يفوق بعض النظريات الحديثة. ثمّ إنه لا ضير من الجمع بين ما هو قديم موروث وما هو جديد وارد، وبذلك تكتمل الفائدة وتتسع دائرة المعرفة.

ولذلك سيكون موضوع دراستي في (صوتيات القرآن الكريم)، وقبل الشروع في هذه الدراسة أودّ التنبيه إلى شيء أزعم أنه ذو بال، وهو أنني لا أقصد مما سيطرح في هذه الورقات تغيير سنة أو تبديل واقع، وإنما أطرح مشكلة لغويّة، علها تنتج جدلاً لغويًّا من شأنه أن يثري ساحة الفكر، ويغذّي فينا حبَّ السعي وراء كشف حجب الحقائق المخفيّة، وسيكون طرحي هذا في نطاق بعض أصوات اللغة التي خالف المحدثون في وصفها وتحديد مخارجها ما نراه عند القدامى، سواء أكان هؤلاء القدامى من النحاة أم كانوا ممن عنوا بالدرس الصوتي ذي العلاقة بالقرآن الكريم، والذين عرفوا بين الناس فيما بعد بعلماء التجويد، وذلك بغية تبيين ما قد يترتب على هذا الاختلاف من تباين في طريقة أداء القرآن الكريم (نظريًّا)، وأقول (نظريًّا)؛ لأنّ قراءة القرآن سنّة متّبعة، لا يجوز معها الاجتهاد، ولا يصحّ فيها التبديل، وإنما نطرح المسألة ههنا طرحًا نظريًّا جدليًّا بعيدًا عن

واقعنا في التلفّظ بأصوات القرآن الكريم، حالنا في ذلك حال النحاة عندما يعرضون إعراب قراءة ما أو الاحتجاج لها، ثم يردفون ذلك بقولهم: «ويجوز في غير القرآن كذا وكذا»، من غير أن يجوزوا القراءة بها. فنحن ههنا نعرض لمسائل صوتيّة نرى تبعا لقوانين علم الأصوات أنه يجوز معها النطق بطريقة أخرى غير المتّبعة عند قراءة القرآن الكريم، بيد أننا لا نجوز التلاوة بها، وإنما نقول إنّ ذلك قد يجوز خارج النص القرآني، الذي نعلم جميعا أنّ طريقة تلاوته سنّة متّبعة، لا مجال للاجتهاد والتغيير فيها.

ولكي تتضح الصورة نورد المثال الآتي: إنّ الجيم صوت احتكاكي رخو عند المحدثين، شديد انفجاري عند القدامى، وكونه شديدًا عند القدامى جعله من أصوات القلقلة؛ لأن من شروط الصوت المقلقل أن يكون مجهورًا انفجاريًّا، والسؤال: ألا يجوز لنا اليوم، ونحن نتعاطى جيما احتكاكية، أن نمنع القلقلة عنها، ونجعل منها صوتًا غير مقلقل لفقدانها أحد شرطي القلقلة؟!

هذه هي الفكرة التي يستند عليها هذا البحث، غير أني أعاود القول إن ذلك، وإن جاز، فإنّما يجوز خارج التلاوة القرآنية التي لا مجال للاجتهاد معها، وإلا أضحت عرضةً للتغيير والتبديل كلما عنّ للغة عارض من عوارض التطور، الذي لا تسلم منه لغة من اللغات البشرية.

وإذا كانت فكرة البحث قد وضحت في الأذهان وبان الغرض منه فسأمضي إلى الجزئيات التي نستوضح من خلالها ما بيّناه من قبل، وسينصب حديثنا على هذه الأصوات الثلاثة:

١- صوت الجيم:

الجيم عند الخليل بن أحمد جارة القاف والكاف في المخرج، فهو يحدد مخرجها بقوله: «وأمّا مخرج الجيم والقاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم»[١]، وهي عند عامّة القدامى صوت شديد؛ أي: انفجاري، يقول الداني: «والشديدة ثمانية أحرف يجمعها: (أجدك قطبت)، الهمزة والقاف والجيم والدال والكاف والتاء والطاء والباء»[٢].

وكون مخرج الجيم من آخر الفم، كما يقول الخليل، إضافة إلى أنها صوت انفجاري شديد كما نرى عند غالب الأصواتيين العرب القدامى، يستلزم ذلك في عملية نطقها أمرين اثنين:

أ- أن تكون واحدًا مما يعرف بالأصوات القمرية؛ أي من الأصوات التي تظهر معها لام المعرفة، كما هي الحال مع الهمزة والباء مثلاً؛ ذلك أنّ لام المعرفة هذه « تدغم في أربعة عشر حرفًا بلا اختلاف في ذلك، هي: التاء والثاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء واللام والنون، وعلّة إدغام لام التعريف في هذه الحروف أن مخرجها من مخارج هذه الحروف في الفم... ولا تدغم في باقي حروف الفم؛ لتباعدها عن مخرج الفم»[٣]. فلمّا تباعدت مخارجها عن مخرج اللام وجب معها الإظهار.

ب- أن تكون أحد أصوات القلقلة الخمسة، وهي القاف والطاء والباء والجيم والدال، فهذه الأصوات إنما قلقلت لتوافرها على شرطين أساسيين، هما الشدّة والجهر، يقول ابن الحاجب:« وإنما حصل لها ذلك لاتفاق كونها شديدة مجهورة، فالجهر يمنع النفس أن يجري معها، والشدّة تمنع أن يجري صوتها، فلما اجتمع لها هذان الوصفان... احتاجت إلى التكلف في بيانها، فلذلك يحصل ما

يحصل من الضغط للمتكلم عند النطق بها ساكنة حتى تكاد تخرج إلى شبه تحركها لقصد بيانها؛ إذ لولا ذلك لم تتبيّن»[٤].

إذًا حقّ الجيم حسب ما حدد الخليل مخرجها وما نراه من وصف القدامى إياها أن تكون صوتًا مقلقلاً ومظهرًا مع لام التعريف، ولكن ماذا لو نظرنا إلى تلك الجيم التي تدور على ألسنتنا اليوم، والتي هي مخالفة في طبيعتها للجيم الموصوفة في كتب القدامى؟ ألا يجوز أن نغير طريقتنا في التعاطي معها بسبب تغير مخرجها وزوال صفة الشدّة عنها؟ فلننظر قبلاً كيف يصف لنا العلم الحديث هذه الجيم التي نتعاطاها اليوم.

الجيم عند المحدثين من علماء الأصوات صوت يخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، فهي جارة الياء والشين في المخرج، وليست جارة القاف والكاف كما قال الخليل، وهي كذلك صوت احتكاكي أو شبه احتكاكي، وليست بالصوت الشديد كما رأينا عند الداني، يقول الدكتور تمام حسان واصفًا الجيم ومخرجها: « ويمكن وصف هذا الصوت بأنه غاري مركب مجهور مرقق، يتم النطق به بأن يرتفع مقدم اللسان في اتجاه الغار حتى يتصل به محتجزًا وراءه الهواء الخارج مع الرئتين، ثم بدل أن ينفصل عنه فجأة كما في نطق الأصوات الشديدة يتم هذا الانفصال ببطء، فيعطي الفرصة لهواء الرئتين بعد الانفجار أن يحتك بالعضوين المتباعدين»[٥]، ويقول الدكتور إبراهيم أنيس: الجيم صوت «يتكون بأن يندفع الهواء إلى الحنجرة، فيحرّك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج، وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء، فإذا انفصل العضوان انفصالاً بطيئًا سُمع صوت يكاد يكون انفجارًا هو الجيم»[٦]، وهو عند الدكتور كمال بشر: «صوت لثوي حنكي (مركب = انفجاري احتكاكي) مجهور»[٧].

إذًا نحن اليوم أمام جيم غير تلك التي كانت سائدة قديمًا، والتي نرى وصفها في كتب القدامى، أمّا الجيم التي تتماشى مع وصف الخليل السابق فإنها تقترب شيئًا كثيرًا مما يعرف اليوم بالجيم القاهرية، إن لم تكن هي هي، أما كيف تطورت هذه الجيم من جيم مؤاخية للكاف والقاف في المخرج إلى جيم تتخذ من مخرج الياء والشين مخرجًا لها، فللدكتور إبراهيم أنيس في هذه المسألة رأي جيّد، لعلّه يكون من المفيد الإشارة إليه بعجالة.

يقول الدكتور أنيس: إنّ العرب كانت تنطق بالجيم اللهويّة الشديدة الخالية من التعطيش، ثم إنّ هذه الجيم تطورت بسبب ملازمتها - تقريبًا - للأصوات المرفقة ولأصوات اللين الأمامية، إلى الجيم المعطشة التي ننطق بها اليوم، وهو أمر معروف في اللغات الأوربية؛ إذ تطور صوت ال(G) الإغريقي من صوت غير معطش إلى صوت معطش، يخرج من شجر الفم، بسبب اقترانه بأصوات اللين الأماميّة، فإذا ما قسنا صوت الجيم العربي على صوت ال(G) الإغريقي طاب لنا الحكم بأنّ الجيم اللهوية غير المتعطشة هي الأصل عند العرب، وأن جيم اليوم ما هي إلا صورة متطورة للنطق العربي القديم، «وعليه، لسنا ندهش حين تتطور - أي جيم - من صوت خال من التعطيش إلى صوت معطش؛ لأنّ الحركة الأمامية قد جذبتها إلى الأمام، وأصبح مخرجها أقرب إلى وسط الحنك، بعد أن كان أقصى الفم»[٨].

هكذا حصل التطور لهذا الصوت، وإذا ما

سلمنا به وجب علينا أن نتعامل معه بهيئته الجديدة المستعملة، لا بصورته القديمة التي نسيتها الشفاه، وعليه نطرح هذه التساؤلات:

١- ألا يجوز لنا، ونحن نتعامل مع الجيم اليوم، أن ندغم لام التعريف فيها، لتلحق الجيم بما يعرف بالأصوات الشمسية بدل انضمامها إلى الأصوات القمرية، فنقول مثلا: (أجّمل) بدلاً من (الجمل)، وبخاصة أننا رأينا علماء التجويد من يعلل إظهار لام التعريف مع الأصوات القمرية ببعد المخرج، وإدغامها مع الأصوات الشمسية بقرب المخرج، فهذه الجيم التي ننطق اليوم تخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، فمن حقّها إذًا أن تدغم فيها لام التعريف، ثم إننا إذا قررنا أن هذه الجيم تخرج من مخرج الشين والياء فإنه يصير لزامًا علينا معاملتها معاملة الجيم والشين من حيث إدغام لام التعريف فيهما.

٢- أليس من اللازم علينا أن ننزع عن الجيم صفة القلقلة؛ إذ تقرر عندنا أنها صوت رخو احتكاكي، أو شبيه بالاحتكاكي، وأنّ الصوت المقلقل ينبغي أن يكون شديدًا خالص الشدّة؟!

بيد أن في صفة الشدّة هذه وجهة نظر أخرى، يطيب لي عرضها هنا. فالأمر ذو علاقة وطيدة بمفهوم مصطلح الشدّة أو الانفجار عند القدامى والمحدثين، وحتى نحكم على وصف القدامى الجيمَ بالصحة، أو بالخطأ. يجدر بنا قبل كل شيء تعرّف معنى الشدّة عندهم. وعند المحدثين، يقول مكي بن أبي طالب، من علماء التجويد: «ومعنى الحرف الشديد: أنّه حرف اشتدّ لزومه لموضعه وقوي فيه، حتى منع الصوت أن يجري معه عند اللفظ به»[٩]. ويعرفه ابن جني من علماء اللغة بأنه: «الذي يمنع الصوت من أن يجري معه عند اللفظ به»[١٠]. ويقول الدكتور عبد الحميد الأصيبعي من المحدثين: يحدث الصوت الشديد من خلال «إحداث قفل تام في مجرى الهواء باعتراض عضو أو أكثر من أعضاء النطق لتيار الهواء، ثم تسريح الهواء فجأة»[١١].

وإذا ما قابلنا بين قول القدامى والمحدثين وجدنا أنّ هناك فرقًا في تحديد معنى الشدة أو الانفجار فالقدامى يضعون معيارًا واحدًا ليس إلا للصوت الشديد، وهو انحباس الهواء معه، كما قال ابن جني، أو اشتداد لزومه لموضعه كما عبر عن ذلك مكي، أما المحدثون من علماء الأصوات فإنهم يضيفون شرطًا آخر في الصوت الانفجاري، وهو عنصر المفاجأة: أي إنّ عضوا النطق بعد التصاقهما عند تعاطي الصوت الانفجاري مدة ما يحدث معهما انفجار شديد، أو لنقل إنهما ينفصلان بشكل مفاجئ مما يسبب حدوث صوت شبيه بالانفجار، وعنصر المفاجأة هذا ليس موجودًا مع الجيم، ومن هنا نقول: إنّ أحدًا من القدامى أو المحدثين لم يخطئ في وصف الجيم بالشدة، أو الرخاوة فالقدامى وصفوها بالشدة ناظرين إلى ذلك الالتصاق المحكم الذي يحدث عند التلفّظ به، والمحدثون نعتوها بالرخاوة: لأنّ عنصر المفاجأة ليس موجودًا، ولعلّه من الخطأ أن نحكم بعدم صواب رأي القدامى، متناسين أنّ لكل فريق معاييره؛ فالجيم حسب معيار القدامى صوت شديد، وهو صواب، وحسب معيار المحدثين احتكاكي، ولا خطأ في ذلك.

تبقى مسألة أخرى هي معاملة الجيم معاملة الأصوات التي تدغم فيها لام التعريف، وهذا أمر في نظري غضّ عنه القدامى الطرف، ولم يدلوا

صوتيات القرآن الكريم

فيه بدلو، ولي فيه وجهة نظر يطيب لي سوقها. فالخليل بن أحمد وصف لنا مخرجين للجيم، الأول من آخر اللسان مع القاف والكاف كما سبق أن رأينا، والآخر مع الشين والضاد، وذلك حين يقول:« والجيم والشين والضاد شجرية؛ لأن مبدأها من شجر الفم»[١٢]. وهذا يجعلنا نوشك أن نقول إنّ مخرج الجيم في عهد الخليل كان يشهد تطورًا بتحول مخرجه من أقصى اللسان إلى وسطه، ثم إنّ العرب غلب عليهم النطق الجديد للجيم بإخراجه من وسط اللسان بدل إخراجه من آخره، بيد أنهم نسوا أو تناسوا ما يترتب على هذا التحوّل من جعل الجيم صوتًا شمسيًّا لا قمريًّا، فظلوا يظهرون لام التعريف معه، وهذه ازدواجيّة في التعامل مع أصوات اللغة، وخطأ ليس يرتضيه علم الأصوات بلا شك، أمّا متى حدث هذا التطور أو التغير تحديدًا فلسنا نملك إلا أن نقول: إنّ الإجابة عن هذا السؤال لا تزال راقدة في رحم الغيب.

٢- صوت الضاد:

لا شك أنّ صوت الضاد قد تطور، بل يكاد يجمع علماء الأصوات على أنّ الضاد القديمة لم يعد لها وجود في نطقنا اليوم، وأن العربية لم تعد لغة الضاد كما كانت من قبل، يقول المستشرق براجستراسر: «فالضاد العتيقة حرف غريب جدًّا غير موجود حسبما أعرف في لغة من اللغات إلا العربية... ويغلب على ظني أنّ النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب»[١٣]، وإذ ما تقرر لنا صحة ذلك، فلننظر في وصف القدامى ووصف المحدثين الضادَ. ثم لنبحث في كيفيّة تطوره، وما يجب أن ينتج عن هذا التطور في عملية التلفّظ.

يرى القدامى أنّ الضاد صوت جانبي: أي إنه يخرج من كسر الفم الأيمن أو الأيسر، وأنه صوت احتكاكي رخو، يقول مكي بن أبي طالب: «الضاد تخرج من المخرج الرابع من مخارج الفم، من أول حافة اللسان، وما يليه من الأضراس»[١٤]، ويقول: «فلا بد للقارئ المجوّد أن يلفظ بالضاد مفخمة مستعلية مطبقة مستطيلة، فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط الهواء حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها»[١٥]، فصوت خروج الهواء مع الضاد يعني أنه صوت احتكاكي رخو، وإلا كيف يخرج الهواء معه، ولقد صرح مكي برخاوة الضاد حين قال:« وإذا سكنت الضاد، وأتت بعدها تاء، وجب التحفظ ببيان الضاد؛ لئلا تندغم في التاء لسكونها ورخاوتها وشدة التاء»[١٦]، ويقول الداني: «والمستطيل حرف واحد وهو الضاد، استطالت في الفم لرخاوتها»[١٧].

أما المحدثون من علماء أصوات العربية فيقرون أنّ الضاد صوت ينتسب إلى مخرج الدال والتاء والطاء، يقول الأستاذ عبد الحميد الأصيبعي: «أما صوت الضاد فيشبه صوت الطاء في حركة أعضاء النطق عند المخرج وعند الطبق والحلق، ويخالفه في حركة الأعضاء عند الحنجرة، حيث يحدث معه ما يحدث مع صوت الدال الذي يشبه صوت الضاد في حركة الأعضاء عند المخرج كذلك»[١٨]، وصوت الطاء هذا «يحدث عندما يندفع الهواء بضغط ضعيف، فلا يحرك الوترين الصوتيين، وعندما يصل الهواء إلى مؤخرة اللسان يصادف تضييقًا فيما بين الحلق والطبق بارتفاع مؤخرة اللسان ورجوعها إلى الخلف، وعندما يصل إلى مخرج الصوت تنطبق أسلة اللسان على الأسنان العليا واللثّة انطباقًا محكمًا، يعقبه انفجار مفاجئ وسريع»[١٩].

فالضاد التي نتعاطى اليوم إذًا هي جارة الطاء والتاء والدال في المخرج، غير أنها تخالف الطاء

بجهرها، وهو ما عبّر عنه الأصيبعي بتباين حركة أعضاء النطق بينها وبين الطاء داخل الحنجرة، كما أنها تخالف التاء في جهرها واستعلائها، أما الدال فتخالفها في الترقيق والاستفال، ذلك أنّ الدال، وإن كانت مجهورة، صوت مرقق مستقل، فالفرق بين القدامى والمحدثين جلي في وصف هذا الصوت وتحديد مخرجه، فهو عند القدامى جانبي رخو، وعند المحدثين صوت انفجاري يصدر من وسط اللسان، فكيف يا ترى حدث هذا التطور؟ ثم ما النتائج المترتبة عليه عند النطق؟ وهل راعى العرب هذه النتائج أو لا؟

ترجع العلّة في تطور هذا الصوت إلى طبيعته الصعبة وعسر التلفظ به، الأمر الذي أشار إليه القدامى وأكّده المحدثون، يقول مكي:« ولا بد من التحفظ بلفظ الضاد؛ حيث وقعت، فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة... والضاد أصعب الحروف تكلفًا في المخرج وأشدّها صعوبة على اللافظ»(٢٠)، ويذكر صاحب (النشر في القراءات العشر) أن صوت الضاد «ليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقل من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة، ومنهم من يشمه الزاي، وكل ذلك لا يجوز»(٢١)، ويقول الدكتور بشر:« نحس بصعوبة بالغة في نطق هذه الضاد، وقلما استطاع واحد منّا أن يأتي بنطق مثالي يوائم ما قدّمه لها العرب من خواص وسمات»(٢٢).

وما أشار إليه ابن الجزري من صور عدّة لتعاطي الضاد بصورة مشوهة يمكن التمثيل له لتأكيد صحته، فنطق الضاد كما الظاء أمر يجده السامع في بعض اللهجات المنتمية إلى البداوة خاصة، كما هي الحال في البادية الليبية وغيرها، بل إنّ هذا النطق له جذوره القديمة، فقد روي أن كثيرًا من العرب كان يخلط بين الضاد والظاء، من ذلك ما رواه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة من أنه «كان رجل بالبصرة له جارية تسمّى (ظمياء)، فكان إذا دعاها قال: (يا ضمياء)، بالضاد، فقال له ابن المقفع: قل (يا ظمياء)، فناداها (يا ضمياء) فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال هي جاريتي أو جاريتك»(٢٣)؟!.

وقد وصفت هذه الضاد المخالطة صوت الظاء في كتب النحو القديمة بـ: (الضاد الضعيفة)، وعدّت من ضمن الأصوات الفروع غير المستحسنة، يقول ابن يعيش: «والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها ظاء، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها، فلم يتأتّ لهم ذلك فخرجت بين الضاد والظاء»(٢٤)، أما مزج الضاد بالذال فلا غرابة فيه؛ إذ لا فرق بين الظاء والذال إلا في التفخيم والترقيق، فإذا ما جاز الجنوح بالضاد نحو الظاء، فلا غرابة أن يجنح بها نحو الذال أخت الظاء في المخرج.

ومسألة إشمام الضاد صوت الزاي ليست غريبة على أذن العربي اليوم، فصوت الظاء ينطق في كثير من الأمصار العربية اليوم كما الزاي المفخمة، فيقال في (ظهر) (زهر). وتعليلاً لهذه الظاهرة أقول: إن الضاد لصعوبتها جنح بها نحو مخرج الظاء، وهو أمر معروف في العربية؛ ذلك أنّ الضاد الفصيحة القديمة رخوة قريبة المخرج من مخرج الظاء، فالأولى من طرف اللسان، والثانية من حافته، فلمّا اقتربتا في المخرج، واتحدتا في الجهر والرخاوة، ساغ للعربي أن ينتقل من الضاد الصعبة إلى الظاء السهلة نطقًا، ثمّ إنّ هذه الظاء تراجع مخرجها شيئًا قليلاً إلى الوراء، لتجد مخرج

الزاي المؤاخية لها في الرخاوة، فإذا ما جاز إشمام الظاء صوت الزاي، جاز تبعًا لذلك إشمام الضاد الشبيهة بالظاء صوت الزاي.

بقي أمران: الأول هو نطق الضاد كما اللام المفخمة، وما أميل إليه هو أنها لم تنطق لامًا مفخمة خالصة؛ إنما كانت خليطًا بين الدال واللام المفخمتين، وهو ما ارتآه أحد المستشرقين؛ إذ يقول: «ويغلب على ظني أنّ النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أنّ للضاد نطقًا قريبًا منه جدًا عند أهل حضرموت، وهو كاللام المطبقة، ويظهر أنّ الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك، ولذلك استبدلها الإسبان بالـ (LD) في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم، مثال ذلك أنّ كلمة (القاضي) صارت في الإسبانية Alcalde».[٢٥]

ويبدو لي أنّ في ذلك شيئًا كثيرًا من الصواب، فهذه الكلمة الإسبانية عربية الأصل، وإن كانت تعني اليوم (رئيس البلدية)، فإنّ من معانيها القديمة (القاضي)، وبذلك تكون الضاد مقابلة للدال واللام المفخمتين، وليس للام المفخمة وحدها، وإلا ما الذي يسوّغ وجود صوت ال(D) الأسباني، ولقد تتبعت في غير ما تأنّ المعجم الإسباني، فوجدت لهذه الظاهرة عدّة أمثلة، وأقول في غير ما تأن: لأني أدرك أنّ شيئًا من التأني من شأنه أن يسعفنا بكثير من الأمثلة الدّالة على ذلك، فمن ذلك هاتين الكلمتين الإسبانيتين ذاتا الأصل العربي: (Aldea-Aldaba)، وهما تعنيان على التوالي: (الضيعة والضبة)، أي: القرية الصغيرة، واليد الحديدية، التي توضع على الباب لغرض الطرق، فهاتان الكلمتان تحملان في المدلول الإسباني اليوم المدلول الموضوع لهما في اللغة العربية ذاته، مما يدعم أصلهما العربي، أمّا من الناحية الصوتيّة فقد جاء الصوتان(LD) عوضًا عن الضاد العربية القديمة، وهو ما يدعم وجهة النظر التي سقناها آنفًا.

أما الأمر الثاني، فهو نطق الضاد كالطاء القديمة؛ أي على الصورة المعهودة اليوم، صوتًا شديدًا لا رخوا، وهو موضوعنا هنا، وذلك يتأتى بمنح الضاد القديمة صفة الشدّة، وتحويل مخرجها من طرف اللسان إلى وسطه مع ما يحاذيه من أعلى الحنك؛ أي إلى مخرج التاء والطاء والدال، لتصبح بذلك النظير المفخم لصوت الدال المرقق، وهو نطق ليس بالحديث، وصفه أحد علماء التجويد بالعجب مجهول السبب، فقال:« فما اشتهر في زماننا هذا من قراءة الضاد المعجمة مثل الطاء المهملة فهو أمر عجب لا يعرف له سبب»، وأضاف قائلاً: «قراءة الضاد المعجمة مثل الطاء المهملة فيه مفاسد، الأول: أنه يلزم إعطاء الشدّة للضاد مع أنه رخو، الثاني: إنّ الاستطالة امتداد الصوت فتفوت حينئذ، الثالث: إنّ في الضاد تفشّيًا قليلاً فيفوت أيضًا حينئذ»[٢٦].

وأحب أن أشير هنا إلى أنّ ربط هذا التغير الصوتي بعصر متأخر كعصر ابن الجزري فيه نظر؛ ذلك أنّ هذا التغير في الضاد القديمة حدث قبل ذلك بكثير، وهو ما سنراه لاحقًا، فقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس ما نصّه:« والذي نستطيع تأكيده هنا أنّ الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق في مصر (أي بنطقها دالا مفخمة أو كالطاء القديمة، وهو ما يدلّ عليه باقي السياق)، وأن هذا التطور كان قد تمّ في عهد ابن الجزري؛ أي في القرن الثامن الهجري، فهو يقول في كتابه التمهيد: «إنّ المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة»[٢٧].

وهذا قول مخالف لما جاء على لسان ابن سينا، وهو يصف الطريقة التي يتم بها إنتاج هذا الصوت في عصره؛ إذ يقول: «وأمّا الضاد فإنها تحدث عن حبس تام عندما تتقدّم موضع الجيم، وتقع في الجزء الأملس»[٢٨]، فهذه الضاد التي يصف ابن سينا مخرجها، هي الضاد المستعملة اليوم، فهو يشير هنا بوضوح إلى شدّتها بقوله:« فإنها تحدث عن حبس تام»، فهي إذًا النظير المفخم لصوت الدال، أو ما يطابق صوت الطاء القديمة، ما يؤكد وجودها منذ عصر ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ للهجرة، وأنها لم تظهر في القرن الثامن الهجري، كما قال الدكتور أنيس.

وختام القول: أنّ الضاد تحوّلت من صوت احتكاكي رخو يصدر من أحد جانبي اللسان والأضراس إلى صوت شديد انفجاري مخرجه من مخرج التاء والدّال بسبب ما يعتريه من صعوبة، فإذا ما ثبت ذلك، فما تبعيات هذا التغير الصوتي ياترى؟!.

سنتناول هنا كلمة واحدة واردة في القرآن الكريم؛ لتكون أنموذجًا نبيّن من خلاله كيفيّة نطق الضاد بالصورة القديمة، وما يمكن أن يؤول إليه النطق، ونحن نتعاطى هذه الضاد الشديدة المؤاخية للطاء والدال والتاء في المخرج، وهي كلمة: (اضطر) من قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٢٩].

حسب الوصف القديم للضاد ليست لدينا مشكلة صوتية في التعامل مع هذه الكلمة، فالضاد برخاوتها تسهّل علينا الانتقال إلى الطاء بعدها من غير عناء، ولا مشقّة، ولذلك نرى القرّاء يحافظون على الإتيان به، وترك إدغامها في الطاء، كي لا تضيع رخاوتها مع الإدغام، أما وقد صارت الضاد صوتًا انفجاريًا فإنّ ذلك يعني - في كلمة كهذه على الأقل - واحدًا من أمرين:

أ- قلقلة الضاد لتلحق بذلك بأصوات القلقلة. ولا ضير في ذلك، فهي صوت يتوافر على شرطي القلقلة حسب نطقه الحديث، فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور، ثمّ إنّ قلقلتها في هذا الموضع بالذات من شأنه أن يسهّل عملية النطق على اللسان، فمن غير السهل الانتقال من صوت شديد انفجاري مطبق إلى آخر مطبق مؤاخ له في المخرج من غير فاصل بينهما، أو حدوث عملية تفاعل بين الصوتين، وصويت القلقلة هو الفاصل بين هذين الصوتين والذي يقدر على جعل التحوّل من الضاد الانفجاريّة إلى الطاء الشديدة أمرًا ميسورًا.

وليس يخفى على أحد صعوبة التحوّل من الضاد الحديثة إلى التاء المجاورة لها في المخرج، والمماثلة لها في الشدّة من غير وجود تفاعل بينهما أو فاصل، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**﴾[٣٠]، فعدم إدغام الضاد في التاء - مع توافر شروط الإدغام بالاتحاد في المخرج وبعض الصفات- يجعل من عملية النطق أمرًا غير سهل إلا بقلقلة الضاد، فالقلقلة تولد صُويتًا خفيفًا من شأنه أن يكون فاصلاً بين الصوتين المتجاورين مما يسهّل عملية النطق، غير أننا لسنا نجد أثرًا لهذه القلقلة في غالب القراءات القرآنية، أو لنقل فيها جميعًا مع توافر شرطيها وشدّة الحاجة إليها.

ب- انسجام الصوت مع ما قبله وما بعده من الأصوات الملاصقة له بشكل مباشر والمشاركة له في المخرج، وهذا أمر طبيعي،

صوتيات القرآن الكريم

فعلماء التجويد، ومعهم علماء الأصوات، يقررون أنّ الأصوات المتجاورة في المخرج متى التقت بشكل مباشر أثر الواحد منها في الآخر، وما نراه في كلمة مثل: (اضطر) هو أنّ واحدًا من الصوتين لم يؤثر في الآخر مع عدم الفاصل بينهما، ولعلّه من الإجحاف بحق الضاد أن نسحبها من مخرجها الأصلي، الذي هو جانب اللسان مع الأضراس، لنقحمها في مخرج الطاء والدال والتاء، ثم نمنعها من التفاعل مع تلك الأصوات، إننا مثل من ينزع إنسانًا من مجتمعه ليقحمه في مجتمع آخر، ثم يضرب عليه طوقًا من العزلة يمنعه من الاختلاط بأفراد المجتمع الجديد الذي يحيا فيه، فإذا ما أردنا تطبيق القوانين الصوتيّة وجب علينا أن نجعل من الضاد الجديدة صوتًا ذا تأثير وتأثر بغيره من الأصوات المشاركة له في المخرج، فيدغم في غيره، ويدغم فيه غيره حسب القوانين الصوتية المعروفة، وإذا ما ذهبنا نراجع هذه القوانين علمنا أنّ الصوت القوي لا يدغم فيما هو أضعف منه غالبًا[٣١]، فلا تدغم الضاد في الدال لضعف هذه الأخيرة برقتها، في حين أنّ الدال تدغم فيها كما في قراءة أبي عمرو بن العلاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾[٣٢]، أما الطاء فالأمر معها مختلف، إذ إنها تساوي الضاد في القوة، فكلاهما صوت مطبق مستعل مفخم شديد، وإن كانت الضاد تفوق الطاء بجهرها حسب النطق الحديث للطاء، وهذا يعني ضرورة إدغام الطاء في الضاد فتنطق الكلمة هكذا (اضّر)، أو إدغام الضاد في الطاء فتصير الكلمة هكذا (اطّر) ما يسهل عملية النطق على اللسان.

وهذا النوع من الإدغام جوزته العربية مع الظاء، وهي رخوة، وهو مع الضاد أكثر جوازًا لشدّتها، بل هو أمر مُلحّ جدًّا لتيسير عملية النطق، فتاء (افتعل) من الفعل (ظلم) تتحول طاء لمناسبة الاستعلاء في الظاء قبلها لتصير الكلمة (اظطلم)، ثمّ إنّ هذه الظاء مع رخاوتها قد تدغم في الطاء، وهو ما يسهل نطقها، فتصير الكلمة (اطّلم)، او قد تدغم الطاء فيها لتصبح الكلمة (اظّلم)، أفلا يسهل على اللسان التعامل مع هذا النوع من الكلمات؟!

ومما نراه مجافيًا لقوانين علم الأصوات مجيء الدال الساكنة متبوعة بضاد من غير أن تدغم فيها، وذلك كما في قراءة حفص عن عاصم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾، فالدال أخت الضاد في المخرج، وشريكتها في جل الصفات، ولا فرق بينهما إلا في أن الدال صوت مرقق، في حين أنّ الضاد نظيره المطبق، ومن هنا صار من المنطقي إدغام الدال في الضاد، وبخاصة أنّ الصوتين قد التقيا بصورة مباشرة، بيد أنّ هذا لم يحدث.

إنّ ما حدث تحديدًا أننا سمحنا لصوت ما بالتطور والتغير، ثمّ جمّدنا أحكامه المترتبة عن هذا التطور، وفي رأيي إما أن نسمح بالأمرين كليهما، فيحدث الانسجام المطلوب وتتيسر عملية النطق، وإمّا أن نجمّد الأمرين كليهما، فيكون لطرائق نطقنا أصواتَ اللغة ما يسوّغه، كما كان للقدامى مسوّغاتهم الصوتيّة في التعامل مع ألفاظ اللغة، وأعيد القول: إنّ هذا طرح صوتي خالص، ومسألة الجواز وعدمه تظل أمرًا ليس لنا الخوض فيه؛ لكون القراءة سنّة متبعة لا مجال للاجتهاد فيها.

وقبل الانسلال من موضوع الضاد هذا يطيب لي

أن أعرض شيئًا عنّ لي، وأنا بصدد هذه السطور، ذلك أنّ المتأمل في وصف ابن سينا صوت الضاد بأنه صوت شديد، وفي تعامل أبي عمرو بن العلاء مع هذا الصوت، حيث إنه يدغمه في التاء مثلا، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ**﴾، ويدغم الدال فيه كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ**﴾، والمتأمل كذلك في وصف الضاد غير ابن سينا من القدامى بأنه صوت رخو، وفي كيفيّة تعامل غالب القرّاء مع الضاد حيث إنهم لا يدغمونه في الطاء، ولا في التاء، ولا يدغمون الدال فيه، أقول: إنّ المتأمل في كل ذلك ربما كان من حقّه أن يزعم أنّ صوت الضاد كان يشهد تطورًا ليس منذ عصر ابن سينا فحسب، بل منذ عصر أبي عمرو بن العلاء، وربما قبل ذلك، وأن كلتا الصورتين لنطق الضاد كانت سائدة في عصر القرّاء السبعة، فمن أخذ بصورة الضاد الرخوة لم يدغمها في الطاء ولا في التاء، ولم يدغم الدال فيها، وهم غالب القرّاء، ومن أخذ بهيئة الضاد الشديدة الطاء والتاء، وأدغم الدال فيها تسهيلاً لعملية النطق، لكن تبقى مسألة جد مهمة إذا ما قررنا ذلك، هي: إذا كان تعامل أبي عمرو مع الضاد بهذه الصورة؛ لأنه يراها شديدة، فلم لم يقلقلها وقد توافر فيها شرطا القلقلة؟ ولسنا نرى من سبب لذلك سوى أنّه لمّا قلقل الدال، وهي النظير المرقق للضاد. اكتفي بذلك؛ إذ من غايات القلقلة تمييز الصوت المقلقل من نظيره، فلما ميّز الدال بها لم يحتج إلى الجنوح لها مع صوت الضاد.

٢- صوت القاف:

تتمثل نقطة الخلاف بين القدامى والمحدثين في هذا الصوت في كونه مجهورًا عند القدامى، مهموسًا عند المحدثين، يقول مكي، وهو رأي سائر القدامى: «والقاف حرف متمكن قوي؛ لأنه من الحروف المجهورة الشديدة المستعلية، ومن حروف القلقلة»[٣٣]، أمّا المحدّثون فيوافقون القدامى في كل الصفات عدا الجهر؛ إنهم يرون أنّ القاف «صوت شديد مهموس»[٣٤]، ويذهب علماء الأصوات المحدثين مذاهب شتّى في تعليل هذا الاختلاف، وهذا إجمال لذلك:

١- يُخطِّئ بعض الصوتيين المحدثين القدامى في وصفهم القاف بالجهر، يقول الدكتور حسان: «لقد مرّ بنا أنّ هذا الصوت من أصوات القلقلة، وأنّ النحاة والقرّاء قد أخطأوا في اعتباره مجهورًا»[٣٥].

٢- يرى بعض الدارسين أنّ القدامى لم يصفوا القاف التي نتعاطاها في نطقنا اليوم، بل وصفوا لنا قافًا أخرى كانت سائدة في ذلك الوقت، وهي تشبه إلى حد كبير القاف التي نسمعها اليوم عند أهل السودان، وهي قاف مشربة قليلاً صوت الغين، وهذه قاف مجهورة حقًّا، غير أنّ هذا القول تصدّى له بالرد الدكتور غانم الحمد؛ إذ يقول متحدثًا عن وجود تفسير لوصف سيبويه والقدامى للقاف بالجهر: «ويبدو أننا لن نجد ذلك التفسير في نطق القاف غينًا، أو قريبًا جدًّا من الغين.. لأن من غير المعقول أن يغيب عن نظر علماء العربية، وعلماء التجويد، ذلك القرب الشديد حينئذ بين نطق القاف ونطق الغين، ولو أنّ سيبويه حين وصف القاف بأنّها صوت مجهور أراد صوتًا يشبه الغين، لما وصف القاف بأنها صوت شديد، فمن غير المعقول ألا يفطن سيبويه إلى رخاوة ذلك الصوت، وهو فعلاً قد وصف الغين وأختها الخاء بأنها أصوات رخوة»[٣٦].

٣- يذهب عدد من دارسي الأصوات اللغوية اليوم إلى أنّ القدامى، وعلى رأسهم سيبويه، أرادوا من القاف المجهورة ذلك الصوت الذي يقترب كثيرًا في نطقنا اليوم مما يسمّى بالجيم القاهرية، يقول الدكتور بشر: «إنّ العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة. ليس من البعيد أنهم يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذي يمكن تسميته (بالجاف) أو ما يشبه الكاف الفارسية... وهو شبيه بالجيم القاهرية، أو هو هي من حيث الأثر السمعي»[٣٧]، وقد رُدّ على هذا الرأي كذلك بأنّ القاف التي تحدّث عنها القدامى تخرج من نقطة أعمق من نقطة الكاف؛ وهذا الصوت الذي يسميه المحدثون بالجيم القاهرية، هو النظير المجهور لصوت الكاف؛ أي إنه يخرج من مخرجها، ولو كان هو ذات القاف التي يصفها القدامى لما ميّزوا بينه وبين الكاف من حيث المخرج[٣٨].

٤- يرى الأستاذ عبد الحميد الأصيبعي أنّ القاف التي نعتها القدامى بالجهر هي القاف ذاتها التي ننطقها اليوم؛ أي إنها القاف ذاتها التي يرى المحدثون أنها صوت مهموس، وأنّ الاختلاف في الوصف راجع إلى الاختلاف في معيار الجهر والهمس عند الفريقين، فالمحدثون اتخذوا من ذبذبة الوترين الصوتيين وعدم ذبذبتها معيارًا في وصف الصوت بالجهر أو الهمس، أمّا القدامى فإنّ المعيار الأول عندهم هو زيادة الاعتماد، أو الضغط على موقع الجهر مع الصوت المجهور وضعفه مع الصوت المهموس، وسأنقل نص الأستاذ الأصيبعي على طوله؛ لأنه يعطي تفسيرًا أرتضيه لهذه المسألة، وهذا هو النص:

«أما صوت القاف فيقول عنه أحد الأصواتيين: «كثيرًا ما يذهب النحاة الأوربيون إلى أنّ في نطق القاف شدّة ثانية مصاحبة للشدّة الأولى، تحصل بغلق رأس قصبة الرئة»[٣٩]. وهذا النص يفيدنا كثيرًا في معرفة لماذا عدّ سيبويه صوت القاف من الأصوات المجهورة. والمقصود بقصبة الرئة القصبة الهوائية، ورأس قصبة الرئة هو الحنجرة التي تتضمن فتحة المزمار (فتحة الحنجرة)، وغلق رأس قصبة الرئة يكون بانطباق الوترين الصوتيين انطباقًا تامًّا، من هنا أشبه صوت القاف صوت الهمزة، والفرق بينهما أنه في حالة صوت الهمزة ينطبق الوتران ثم ينفرجان، فينطلق الهواء عبر الممر الصوتي إلى خارج الفم دون أي اعتراض آخر، أما في حالة صوت القاف، فإن الوترين الصوتيين ينطبقان انطباقًا تامًّا في الوقت الذي تنطبق فيه اللهاة على مؤخرة اللسان، ثم ينفرج الوتران وكذلك اللهاة ومؤخرة اللسان، وهذا ينطبق مع حالة القفل التام لفتحة الحنجرة... وهذا معنى قول النحاة الأوربيين «إنّ في نطق القاف شدّة ثانية مصاحبة للشدّة الأولى». وهذا ما يفسّر تحوّل القاف إلى همزة في نطق بعض لهجات مصر والشام في العصر الحديث؛ فإنهم - طبقًا لقانون الاقتصاد في الجهد - يكتفون بالشدّة الأولى فيسمع القاف حينئذ همزة، ويضيف الأصيبعي قائلاً: «أما الهمزة والقاف فقد ذكرنا أن سيبويه يعدّهما مجهورتين؛ لأنهما يتفقان مع المعيار الذي وضعه للجهر، فإن معيار الجهر عنده هو: (قوة ضغط الهواء، واعتراض الهواء في الموضع الذي يمكن أن يوصف الصوت فيه بأنه مهموس أو مجهور)... وهذا الموضع هو فتحة الحنجرة حيث الوتران الصوتيان، وقد ذكرنا أنه في حالة النطق بصوتي الهمزة والقاف ينطبق

الوتران الصوتيان انطباقًا تامًّا ثم ينفرجان، كما أنّ ضغط الهواء يكون قويًّا، يفسره الانفجار الذي يحدث عندما ينفك الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر، لذلك وصفهما بالجهر»[٤٠].

وخلاصة القول أننا أمام واحد من احتمالين: إما أن تكون قاف اليوم هي ذات قاف الأمس، وأن الاختلاف في الوصف جاء نتيجة الاختلاف في المعايير، وهو أمر لا نجد معه إشكالاً في الطريقة التي نتعاطى بها اليوم صوت القاف، وإما أن تكون القاف قد تطورت من صوت مجهور، كما يقول الأقدمون، إلى صوت مهموس كما نجد عند المحدثين، وهو ما يتطلب أمرًا جدّ مهم في نطق أصوات القرآن الكريم، ذلك أننا اليوم ننطق قافًا مقلقلة، وقد علمنا أن الصوت يقلقل متى كان مجهورًا وشديدًا، وقاف اليوم تخلو من الجهر حسب المحدثين، ولا سبيل - في رأيي - إلى الخروج من هذا الإشكال إلا بتعاطي قافًا خالية من القلقلة لعدم توافرها على شروط القلقلة كاملة، أو اعتماد ذلك المعيار الذي شرحه الأستاذ عبد الحميد الأصيبعي في تمييز الصوت المهموس من المجهور، وهو ما أميل إليه؛ إذ من خلاله نقدر على المحافظة على نطق القاف الذي ورثه قراء القرآن الكريم جيلاً عن جيل، كما أنّ من شأنه أن يجنبنا فكرة أنّ القدامى أخطأوا في وصف صوت القاف، وهو أمر لا شك مستبعد جدًّا.

نتائج البحث

لا شك أنّ البحث فيما وراء غيبيات أصوات اللغة العربية أمر فيه شيء من العسر، غير أنّه لا يخلو من متعة يحس بها الدارس والقارئ معًا، فالعسر ربما كمن في أنّ مادة البحث عنصر سمعي، والحال أننا نفتقد تلك المادة التي يرتكز عليها بحثنا. والمتعة تكمن في التوصل إلى نتائج قد يكون من شأنها التقريب بين وجهات النظر، أو على الأقل فتح باب للنقاش والبحث ووضع شمعة تضيء جزءًا من سبيل البحث لمن رام مواصلة السير فيه، ويروق لي أن أعرض ما تراءى لي من نتائج هذا البحث بعد هذه الرحلة القصيرة.

إنّ محاولة تفسير الاختلاف بين القدامى والمحدثين في وصف بعض أصوات العربية تكون أكثر فائدة متى ما قلبنا النظر في أكثر من نوع من المصادر، ولا شك أنّ ما روي من القراءات القرآنية يشكّل مادة قادرة على فك الكثير من رموز الصوتيات العربية القديمة، ومن خلال هذا كلّه نحاول عرض أهم النتائج التي استقرأها البحث.

لا شك أن تلاوة الكتاب العزيز سنّة متبعة، ليس لأحد منّا أن يغير فيها قيد أنملة، ولا شك أيضًا أننا لا نقدر على رمي من سبقنا بأنهم غيروا صور هذه التلاوة بسبب من الأسباب، لكننا في الوقت نفسه نواجه إشكالات في عملية النطق، قد يعجز بعضنا عن تفسيرها في ضوء النطق الحديث لأصوات العربية، بيد أننا نقول إنّ للأمر وجهًا آخر مناطه تعدد هيئات النطق في القديم، واختلاف المعايير بين القدامى والمحدثين في وصف أصوات العربية، ونزعم أنّ النظر إلى المشكلة من هذه الزاوية من شأنه أن يكشف لنا الكثير من الحقائق، وهذا بيان ذلك:

« إنّ صوت الجيم لم يتغيّر من الشدّة إلى الرخاوة كما يرى كثير من علماء الأصوات، بل إنه الصوت ذاته الذي كان يتعاطاه القدامى، وليس هناك فرق بينهم وبين المحدثين إلا في معيار الشدّة والرخاوة، حيث يرى أولئك أنّ المعيار يكمن في شدّة الالتحام بين أعضاء النطق ليس إلا، في حين يرى هؤلاء أن الانفصال المفاجئ شرط آخر

للصوت الانفجاري، أما كون لام التعريف لا تدغم معه، فلسنا نملك إلا أن نقول إنّ ذلك مما شذ، والشاذ في اللغة كثير، وربما جاز القول إنّ هناك جيمًا قديمة كانت تنطق من قبل، وهي التي جعلها الخليل من مخرج القاف والكاف، ثمّ إنّ هذه الجيم اختفت، وكتب للأخرى البقاء، مع عدم القول بأصيلة هذه وفرعيّة تلك، فورث العرب من المختفية إظهار لام التعريف معها، وإن كان هذا خطأ في التعامل مع أصوات اللغة، بيد أنه ليس بالخطأ الجسيم الذي يشكل صعوبة في النطق.

أمّا مع صوت الضاد ففي الأمر شيء من الاختلاف؛ ذلك أنّ نطق هذا الصوت أمر كان يصعب على كثير من الناس كما رأينا، ما أدّى إلى التحوّل عنه إلى صورة من صوره التي لم تكن منعدمة من قبل، وقد رأينا ابن سينا يصف هذه الصورة بما يشي بانتشارها بين الناس، وإن لم تكن هي الصورة الأصل، ويبدو لي أنّ كلتا الصورتين كانتا منتشرتين في النطق، فمن اعتمد صورة الضاد الرخوة لم يدغمها في الطاء الشديدة ولا في التاء، ولم يدغم الدال فيها، ومن اعتمد صورة الضاد الشديدة أدغمها في غيرها، وأدغم غيرها فيها، وهو ما فعله أبو عمرو ابن العلاء، أمّا مسألة عدم قلقلة أبي عمرو بن العلاء الضاد الشديدة فلربما ينسحب عليه ما قلناه في عدم إدغام لام التعريف في الجيم، وربما اكتفى بقلقلة الدال النظير المرقق لهذه الضاد، وغاية القلقلة التمييز بين الصوت ومشابهه، فلما ميّز الدال بالقلقلة استغنى عن تمييز الضاد بها.

وأخيرًا الأمر مع القاف أكثر وضوحًا، فليس هناك من أمر سوى الاختلاف في معيار الصوت الشديد والرخو، فالقاف صوت مجهور حسب رأي القدامى ومعيارهم، لذا قلقلوه، وهو مهموس حسب معيار المحدثين، وهذا ينفي فكرة تطور هذا الصوت أو خطأ الأقدمين في وصفه.

وبعد، حافظ المسلمون على أداء أصوات القرآن الكريم كما هي، وغاية ما هنالك أنّ القرآن نزل بسبعة أحرف، فكما جازت مع بعض ألفاظه الإمالة مراعاة لقوم يميلون في لغتهم، وجاز الفتح مراعاة لقوم يفتحون في لغتهم، جاز فيه إدغام الضاد في التاء مراعاة لقوم ينطقون الضاد شديدة، وإظهارها مراعاة لقوم يتعاطون في لغتهم ضادًا رخوة، ولسنا نملك أن نقول إنّ هذا أفصح من هذا؛ لأننا لا نقرر أن الفتح أفصح من الإمالة أوالعكس، فالقرآن نزل بلغة العرب المتنوعة في أدائها، وقد راعى هذا التنوع تسهيلاً عليهم ورحمة بهم. والله ولي التوفيق. ■

●●●

الحواشي

١- العين:١/٥٢.

٢- التحديد في الإتقان والتجويد:١٠٥.

٣- الكشف:١/١٤١.

٤- الإيضاح في شرح المفصّل:٢/٤٤٨.

٥- مناهج البحث في اللغة: ١٣١-١٣٢.

٦- الأصوات اللغوية:٧٧-٧٨.

٧- علم اللغة العام - الأصوات:١٦١.

٨- الأصوات اللغوية:٨١.

٩- الرعاية:٩٣.

١٠- سر صناعة الإعراب:١/٦٣.

١١- الدراسات الصوتية عند علماء العربية: ٧٣.

١٢- العين:١/٥٨.

١٣- التطور النحوي للغة العربية:١٨-١٩.

١٤- الرعاية:١٥٨.

١٥- المصدر السابق: ١٥٨-١٥٩.

١٦- المصدر السابق : ١٦١.

١٧- التحديد في الإتقان والتجويد:١٠٨.

١٨- الدراسات الصوتية عند علماء العربية:٤١.

١٩- المصدر السابق:٤٠.

٢٠- الرعاية:١٥٨-١٥٩.

٢١- النشر في القراءات العشر:١/٢١٩.

٢٢- علم اللغة العربية - الأصوات:١٣٦.

٢٣- البيان والتبيان:٢/٢١١.

٢٤- شرح المفصل:١٠/١٢٧-١٢٨.

٢٥- التطور النحوي للغة العربية:١٩.

٢٦- بيان جهد المقل :٩٠.

٢٧- الأصوات اللغوية: ٤٩.

٢٨- أسباب حدوث الحروف:١٨.

٢٩- الأنعام:١٤٥.

٣٠- البقرة:١٩٨.

٣١- أقول غالبًا؛ لأنّ هذا الأمر لم يثبت في كل الأحوال، بل ثبت عكسه أحيانًا كما في إدغام الضاد في التاء في قراءة أبي عمرو، في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ البقرة:١٩٨.

٣٢- الروم:٥٨.

٣٣- الرعاية: ١٤٥.

٣٤- الأصوات اللغوية:٨٤.

٣٥- مناهج البحث في اللغة:١٢٤.

٣٦- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد:٢٥٣.

٣٧- علم اللغة العام- الأصوات: ١٤٠.

٣٨- ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد:٢٥١.

٣٩- نقلاً عن كتاب: دروس في علم أصوات العربية: ١٠٧.

٤٠- الدراسات الصوتية عند علماء العربية:٦٦-٦٧.

المصادر والمراجع

١. **أسباب حدوث الحروف**، لابن سينا، راجعه طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهريّة، ١٩٧٨.

٢. **الأصوات اللغوية**، للدكتور إبراهيم أنيس، ط٤، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.

٣. **الإيضاح في شرح المفصل**، لابن الحاجب، تح. د. موسى بناي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٣م.

٤. **البيان والتبيين**، لأبي عثمان الجاحظ، تح. عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

٥. **بيان جهد المقل**، للشيخ محمد المرعشي تح. أبو السعود أحمد الفخراني. ط١. دار وهبة للنشر. القاهرة، ١٩٩٨م.

٦. **التحديد في الإتقان**، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تح. د. غانم قدوري الحمد. ط١. دار عمار، الأردن، ٢٠٠٠م.

٧. **التطور النحوي للغة العربية**، للمستشرق براجشتراسر، تر.د. رمضان عبد التواب. ط٢. مكتبة الخانجي، القاهرة. ١٩٩٤م.

٨. **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، للدكتور غانم قدوري الحمد. ط١. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، ١٩٨٦م.

٩. **الدراسات الصوتية عند علماء العربية**، لعبد الحميد عبد الهادي الأصيبعي، ط١. منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا. ١٩٩٢م.

١٠. **دروس في علم أصوات العربية**، لجان كانتينو، تر. صالح القرماي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية، تونس، ١٩٦٦م.

١١. **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، لمكي بن أبي طالب القيسي، تح. د. أحمد حسن فرحات، توزيع المكتبة العربية.

١٢. **سر صناعة الإعراب**، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح.د. حسن هنداوي، ط١، دار القلم، دمشق،١٩٨٥م.

١٣. **شرح المفصّل**، لابن يعيش، عالم الكتب.

١٤. **علم اللغة العام - الأصوات**، للدكتور كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.

١٥. **العين**، للخليل بن أحمد تح.د مهدي المخزومي، ود إبراهيم السامرائي، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام، العراق،١٩٨٠م.

١٦. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، لمكي بن أبي طالب القيسي، تح. د. محيي الدين رمضان، ط٤، دار الرسالة، ١٩٨٧م.

١٧. **مناهج البحث في اللغة**، للدكتور تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.

١٨. **النشر في القراءات العشر**، لابن الجزري، دار الفكر، دمشق.

صوتيات القرآن الكريم